بين الاعتراف والتحدث بنعمة الله:
أصول السيرة الذاتية بين الغربيين والعرب

Between confessing and speaking the grace of God:
The origins of biography between Westerners and Arabs

محمد مكاكي [1]

جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة، (الجزائر)

البريد الإلكتروني: mekaki.2012@gmail.com

تاريخ الإرسال:2022/01/28	تاريخ القبول:2022/04/06	تاريخ النشر:2022/06/10

الملخص:

دأبت الدراسات النقدية العربية على تقديم فن السيرة الذاتية إلى القارئ على أنه فن غربي بامتياز، وأنه لا توجد لهذا الفن نظائر في آداب العرب قديما، رغم أن قياس المنجزات الأدبية إلى معيار ثابت متعلق بزمان ومكان معينين أمر لا يخلوا من الشطط العلمي والمعرفي، غير أنه وفي السنوات الأخيرة ظهرت دراسات أخرى أعادت النظر في هذه المقارنة وما صاحبها من أحكام نقدية، لتؤسس لأحكام جديدة تكاد تتناقض مع سابقتها على مستوى الأصول المنشئة لهذا الفن في الثقافتين: العربية والغربية، وما انجر عن هذه الأصول من تباين في الممارسة الإبداعية .

سنحاول عبر هذه الورقات القاء الضوء على ما اكتنف هذا المسار النقدي ومدى مشروعية مايقدمه أصحابه من شواهد معرفية وتاريخية.

الكلمات المفتاحية: السيرة الذاتية، أدب الاعتراف، ترجمة النفس، التحدث بنعمة الله، الأدب العربي

الملخص باللغة الأجنبية:

Arab critical studies have been presenting the art of biography to the reader as a Western art par excellence, and that there are no analogues to this art in ancient Arab literature, although measuring literary achievements to a fixed standard related to a specific time and place is not without scientific and cognitive excess, but it In recent years, other studies have appeared that have reconsidered this comparison and the accompanying critical judgments, to establish new judgments that almost contradict the previous ones at the level of the origins of this art in the two cultures: Arab and Western, and the difference in creative practice resulted from these assets.

Through these papers, we will try to shed light on what was involved in this critical path and the extent of the legality of the historical and epistemological evidence presented by its owners.

Keywords:

Autobiography, confession literature, self-translation, speaking with God's grace, Arabic literature

مقدمة:

تحاول هذه الدراسة أن تقدم صورة عن المرجعيات الثقافية التي صاحبت نشوء فن السيرة الذاتية عند الغربيين، وهي المرجعيات التي ارتبطت أساسا –كما سيتضح – بالمسيحية وطقوسها، ولذلك تكللت المحاولات الأولى التي حاولت أن تجد لها بدائل تراثية في الأدب العربي بنوع من الفشل والحسرة، التي عادة ما تصاحب أي إرادة لبحث فن أدبي وفق معيار غربي تماما.

ذلك أن البحث التأصيلي الذي يتغيا قراءة التراث وجب عليه بداية أن يقر بوجوب فهم الاختلاف بين الثقافات، عوض أن يجعل النموذج الغربي مقياسا يقاضي به أدبيات من ثقافات أخرى مما يكلل المساعي التأصيلية الإبداعية بالفشل، وعندما نقول بوجوب جعل الاختلاف قاعدة في البحث فإن هذا سيجرنا إلى البحث في جذور الظواهر الأدبية بين الثقافات لفهم مايقف وراء هذه الظواهر من العوامل والأسباب، وهو الشيء الذي سيتيح للباحث أن يقرأ التراث بعين موضوعية تعاين المواضيع دن أحكام ولا معايير مسبقة.

لقد كشفت الدراسات التي واصلت البحث في هذا المضمار عن أن الأشكال الأدبية التراثية لفن السير والتراجم، تتخذ لنفسها خصوصيات مخالفة لصنوتها الغربية، وذلك لنشوئها عن منظور ديني هي الأخرى لكنه يخالف تماما – إن لم يكن يناقض– منظور سر الاعتراف الذي انبثقت عنه السيرة عند الغربيين، وهو وجوب التحدث بنعمة الله، وهو كما نرى متعلق بجوهر إسلامي يربط الاعتراف بوجوب شكر النعمة بالتحدث عنها واظهارها، وفي المقابل يشدد على كتمان الذنوب والخطايا وعدم اباحتها بين الناس، وهذا ما نشأ عنه عزوف وتحفظ في سرد هذه السلوكات عند الادباء والعلماء والكتاب العرب ممن تصدوا لوضع سير عن أنفسهم أو عن غيرهم.

ستكون هذه الصفحات محاولة استكشافية ترصد الخلفيات الثقافية التي أعطت لفن السيرة الغربي مواصفاته التي استقر عليها الآن، وفي المقابل سيكون المسعى متوجها إلى فهم المرجعيات العربية التي منعت أن تكون بعض الترجمات الذاتية حاملة لمواصفات مختلفة عن معايير السيرة الذاتية عند الغربيين.

2. السيرة الذاتية في الثقافة الغربية: المفهوم والمرجعيات

1.2. سؤال المفهوم:

لم يعد خافيا عن المهتمين بشأن الأدب وفنونه ذلك المراد بفن السيرة الذاتية، فالمصطلح يحمل إلى قارئة إعلانا بأن ثمة عملية تقوم على تقديم الذات لنفسها بنفسها، وبهذا يكون هناك اختلاف بين نوع آخر من السيرة هو السيرة الغيرية أي تلك التي تتوخى فيه الذات تقديم سيرة غيرها.

يذكر معجم لاروس الفرنسي أن مصطلح السيرة الذاتية (biographie) ظهر في ألمانيا وانكلترا سنة 1800، قبل أن يستعمل في فرنسا حوالي سنة 1830[1]، وإذا أردنا أن نضبط هذا المصطلح بحد واضح فلا يجد الباحث مثل تعريف "فيليب لوجون" الذي اعتبر منظرا لهذا الفن، الذي يقول فيه: هي حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة[2]، وهذا التعريف يضبط فن السيرة الذاتية بمجموعة من العناصر على مستويات العملية السردية.

فمن حيث المستوى اللغوي تكون السيرة الذاتية حكيا نثريا، ومن حيث الموضوع المعالج، تتعلق السيرة بحياة فرد ما أو تاريخ شخصية معينة، وفي هذا الحكي يتطابق المؤلف المنشئ مع شخصية السارد، وهذا السارد يمثل داخل العمل شخصيته الرئيسة، التي تعتمد على حكي استرجاعي استعادي لتقديم نفسها[3]، فهذه الخصائص تبدو لنا خصائص فنية جعلها "لوجون" قواما فنيا يقوم عليه هذا الفن.

ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا بأن "فيليب لوجون" سعى سعيا حثيثا إلى وضع تلك الضوابط حتى يعصم هذا الفن – الذي صار أحد أجناس الأدب – من الاختلاط بمجموعة من الكتابات التي تتقارب معه في أشكالها كالمذكرات والسير والرواية الشخصية وغيرها، دون أن يتكلل سعيه هذا بفصل صريح وملزم بين تلك الكتابات وبين السيرة الذاتية، وذلك لأن حجم التداخلات والتشابهات بينها أكبر من أن يفصل بمجرد مجموعة من الخصائص الشكلية، كما أن ارتباط فن السيرة بها يأبى أن يكفل لها الاستقلال بنفسها كفن أدبي خالص.

2.2. سيرة ذاتية أم أدب اعتراف؟:

إن استعصاء فن السيرة الذاتية على التحديد النهائي ليس إلا دليلا على ارتباطه بجوهره الذي انبثق عنه، فالذي جعل منه فنا يحاول أن يكون مختلفا عن أشكال الحكي الأخرى وعلى رأسها الرواية، ليس لأنه تملك طرائق لا تتملكها غيره من فنون الحكي، بل لأنه يقوم على موضوع يبدو وأنه يختص بتمثيل الذات لنفسها وإخراج هذا التمثيل في صورة حكائية نثرية، وهذا الجوهر الموضوعي لن يكون مستعصيا على

الرواية أن تتناوله بل إنه لايمكن أن تجد رواية تخلوا من تصوير بعض الذوات لنفسها، دون أن يقتصر العمل الروائي دوما على نزوع حكائي واحد.

وإذا كان جوهر السيرة هو نوع من تصوير خوالج النفس الإنسانية، فهوم منبثق عن كتابات دينية كانت ظهرت في الثقافة الأوربية وعلى رأسها سيرة القديس اوغسطين، تقوم على الاعتراف، وعلينا هنا أن نشير إلى أن هناك من يفضل التفريق بين أدب الاعتراف وبين السيرة الذاتية مثلما فعل لوجون، لكن الواقع التاريخي يفيد أن أول شكل من أشكال السيرة الذاتية كان متجسدا في الاعترافات.

تقوم فكرة الاعتراف في العقيدة المسيحيين على مايعرف " بسر التوبة، ويعرف أيضًا باسم سر الاعتراف، أو سر المصالحة، أي المصالحة مع الله .هو أحد الأسرار السبعة المقدسة في المسيحية .يقوم سر التوبة في منحنيين: المنحى الأول هو الإقرار بالذنب وطلب الصفح من الله، وطبقًا لوصايا ، الله وحده هو غافر الذنب، أما المنحى الثاني فهو الإقرار بالذنب وطلب الصفح من الله بسماع كاهن معرّف بغية الحصول على إرشاد روحي ونفسي صحيح، ومن ثم تكفير الإثم بأعمال بر"[4]

كما أن "شروط سر التوبة تتضمن، القصد، وفحص الضمير، والإقرار بالخطايا، وسماع الإرشاد، وأخيرًا التكفير أو التعويض بأي من الصلوات أو أعمال المحبة تعويضًا عن الأضرار الناجمة عن الخطيئة. من الممكن قبول الاعتراف دوريًا، وعادة ما يلتزم المسيحي أحد رجال الدين فيصبح له "مرشدًا روحيًا"، وتنصّ الوصايا الكنسيّة أن يتم الاعتراف أقلّه مرة في العام، ويجب الإقرار بالخطايا الكبرى، أو التي تدعى بلغة الكنيسة "مميتة"[5]

وتكشف هذه النصوص المقتبسة أن الاعتراف يستوجب الإقرار أمام الكاهن بأعتى الذنوب التي فعلها الشخص، وهذا ما نفهم منه نوعا من الارتباط بالسلوكات الظاهرة في كتابات السيرة الذاتية أو الاعترافات الأدبية التي ظهرت في ما بعد، وذلك من حيث مستويين : أولهما متعلق بحضور الكاهن فهو بمثابة المتلقي الذي توجه اليه الاعترافات تلك، ولذلك فليس من الغريب أن لا تواجه كتابات مسرفة في الحديث عن مزالق النفس ومآثمها في لحظات انحرافهما وحيوانيتها بالاستهجان بين أوساط قراء نشأوا ضمن سياق ثقافي يجعل من هذا السلوك شرطا لازما من لوازم التوبة، أما المستوى الثاني فهو متعلق بموضوع الاعتراف ذاته وهو الذنوب المميتة كما مر بنا، فلذلك سترتفع قيمة الاعتراف بجسامة ما يذكره المعترف ويصرح به من أخطاء كبيرة، وفي هذا ما يبرر انبناء القيمة الفنية لفن السيرة بشكل عام على ما يمكن أن يهدمه من حدود أخلاقية وإنسانية.

إن المتتبع لنشأة ومسار الكتابة السيرية الذاتية عند الغربيين سيجد أنها تبدأ مع اعترافات القديس أوغسطين التي تمثل بداية فعلية للاعتراف والسيرة الذاتية، فقد حملت حديثا صريحا منه متعلقا بمراحل

حياته بما تخللها من سقطات أخلاقية وخروج عن أطر المسيحية قبل أن تنعطف مرة أخرى الى اعتناق روح المسيحية، بعد مرحلة من الصراع والبحث عن الحقيقة[6]، لكنها لم تبق حبيسة كتابات رجال الدين فقد ظهرت اعترافات أخرى سواء حملت اسم الاعترافات أم أسماء أخرى، لكنها لم تكن لتخرج عن القالب العام للكتابة الاعترافية السيرية، ولعل من أشهرها اعترافات جان جاك روسو[7].

إن المحصلة من كلامنا السابق أن الجوهر الذي استقام عليه عود السيرة الذاتية منبثق عن طقس عقائدي غربي، ولذلك لم يكن من الغريب أن يحتضن القارئ الغربي هذا التوجه دون عقدة، في حين عرفت خطواته الأولى نحو الثقافة العربية نوعا من عدم التقبل والرفض، هذا على مستوى القراء، كما أن المحاولات الإبداعية التي تبنته كمراس أدبي، وصفت بأنها جاءت باحتشام وتحفظ كبيرين، وهو الشيء الذي أفقدها ميزاتها الاعترافية قياسا على ما تم تجسيده في الثقافة الغربية.

3. أدب الاعتراف في الثقافة العربية: بين القبول والرفض

عندما بدأ فن السيرة الذاتية في طرق أبواب المشهد الأدبي العربي، بدأت الكتابات النقدية التي تحاول تقديمه للقارئ تجعل من مهامها ربطه كفن أدبي وافد بالتراث العربي، وبغض النظر عن مدى تعمق هذه الدراسات الأولى في مسعاها ، ومشروعية البحث في التراث عن نظائر بمقاييس مستجلبة ، فان حالة الحسرة التي اكتنفت هذه المساعي، تكشف لنا حالة التماهي الحاصلة في الآخر ومحاولة التقمص المخالفة لنواميس الحياة ظاهرة على أغلب تلك المساعي، ولعلنا نمثل لذلك بقول شوقي ضيف الذي انتهي به بحثه إلى غياب فن السيرة الذاتية عن المنجز التراثي العربي، مبررا ذلك بشيء من الحسرة والتأسف قائلا" إن الكتاب القدامى قلما وقفوا عند طفولتهم ونشأتهم والمؤثرات الخارجية في حياتهم، ولهذا كانت هذه التراجم فقيرة من حيث المادة النفسية والاجتماعية[8]، وهو نفس الرأي الذي يراه احسان عباس.[9]

إن القصد من عرض هذين النموذجين هو بيان أن المساعي التأصيلية للمنجزات الوافدة كانت دوما حاملة لخلل معرفي وثقافي يجعل من المعيار الوافد أساسا لاستجلاء النظائر، وفي ذلك إقرار ضمني بتفوق العقل الغربي ووجوب قياس المنجزات المحلية عليه، وهو الشيء الذي أدى في الغالب الى الاصطدام بعدم نجاح استنبات المنجزات الوافدة وتبيئتها في الثقافة المحلية، فالسيرة الذاتية بداية هي تمازج حصل بين فكر المسيحية والكلاسيكية[10]، وعدم توفر هذه القيم في الثقافة العربية الإسلامية هو أمر طبيعي لاختلاف الجوهر أو الأصل المنبثقة عنه هذه المنجزات.

وهذا الاختلاف ظل يصاحب إرادة استنبات أدب اعتراف عربي الى اليوم، وذلك لأن المفهوم العقدي الذي يقوم عليه تصور التوبة في الإسلام مخالف تماما لثقافة البوح في عقيدة الاعتراف، إذ يطلب من

المذنب في الإسلام أن لا يحدث غيره بتاتا بما جنى من الأخطاء والذنوب والآثام، وهذا التناقض بين جوهري القيم المشكلة لهذا النوع الأدبي بين الثقافتين العربية والغربية سيجعل لاشك من الصعب إن لم نقل من المحال أن نجد كتابة أدبية تراثية تقترب من الكتابات السيرية الغربية.

إذا كان الأمر كما أسلفنا فلن نستغرب جملة المواقف التي سجلها النقاد والمفكرون العرب من هذا الفن الوافد، فالمسألة الأيديولوجية كانت حاضرة بقوة في استقباله، ورغم وجود بعض الأصوات التي بدت في مظهر المتحرر الذي لا يرى غضاضة في تبني هذا الفن إلا أن ذلك لم يتعد كونه دعوات تنظيرية لم نجد لها ما يجسدها في كتابات الأدباء العرب إلا في حدود ضيقة جدا.

يمكننا أن نستعرض هنا بعض الشهادات التي تحددت بها بعض مواقف النقاد والأدباء العرب من السيرة الذاتية وأدب الاعتراف، وعلينا بداية أن نشير إلى أن المواقف إزاءهما تباينت وفقا لما يراد بهما، ونقصد بذلك أن جملة من سجل رفضا لهذا النوع من الكتابة إنما كان رفضه متعلقا بجدوى كتابة لا تقدم شيئا غير كشف الخطايا واباحتها بين القراء، فمن وجهة نظر فنية: هل يمكن أن تكون هذه الاعترافات بسلوكات يشترك فيها كل البشر ذات قيمة أدبية؟ لكنه إذا تعلق الأمر باعترافات تكشف صراع الذات الإنسانية في سبيل الوصول الى حقيقة بها تتوازن النفس أو تحقق لدى القارئ شعورا بإمكانية أن يتغلب على صراعاته النفسية ليحقق ذاتا قادرة على مجابهة التحديات على مستوى الباطن فذلك من شأنه أن يحقق قدرا من المشروعية الفنية لهذه الكتابات.

في فضاء هذا المعنى كان موقف أحمد أمين، فهو لا يرفض الاعتراف كاعتراف، بل يرفض حصره في وجوب البوح بفضائح الانسان الشهوانية الجنسية، أما إن كان الاعتراف جامعا لمعان إنسانية تتباين بين السلب والايجاب أخلاقيا، فسيغدو كتابة كغيره من الكتابات التي لا يرى مانعا من اصطفافها ضمن مساحة أجناس الابداع الأدبي، يقول في ذلك: اعتاد الكتاب أن يقصروا الاعتراف على المسائل الجنسية التي اعتمدها جان جاك روسو وغيره ممن قالوا الاعترافات، والقسس الذين يصغون إلى هذه الاعترافات، أما الكلمة نفسها فواسعة شاملة تشمل هذا النوع، وتشمل غيره من الفضائل التي اكتسبها الانسان في حياته، بعنف ومشقة، عليه، يفترض أن يتحدث الانسان فيها عن فضائله وحسناته من غير تحرج أو مبالغة في التواضع"[11]، ويمضي بعد ذلك في سرد بعض ما يسميه "اعترافاتي" في كتابه فيض الخاطر، دون تتعدى تلك الاعترافات كونها تصريحات مقتضبة عن نظرته الى نفسه، والاشارة الى بعض ميوله باقتضاب شديد[12] وهذا التصريح من أحمد أمين يعيد عبره النظر في التحجيم الذي طال كلمة الاعتراف ذاتها، حيث صارت مختصة الدلالة على الاعترافات الجنسية، ويرى بوجوب إعادة دلالتها الى معناها الشامل الذي يساوي بين

اعترافات أخلاقية ولا أخلاقية، فالكلمة أساسا شاملة لكل بوح يقوم به الانسان، يخرج فيه ما كان مضمرا بداخله دون اشتراط أن يكون مما يعيب الانسان كشفه للناس.

يشترك في هذا الرأي مع أحمد أدباء آخرون، فالعقاد مثلا له في أدب الاعتراف رأي ضمنه في سيرته الذاتية من فصلها الخامس، حين أفرده بعنوان اعترافاتي، يقول فيه:

ولن يكون الاعتراف اعترافا في رأي بعضهم، إلا إذا كان اعترافا بأمر يغلب على الناس إنكاره وكتمانه، فلا يفهمون من الاعتراف إلا أنه إعلان لخبيئة في النفس تشين صاحبها، وتدعوه إلى إخفائها، لكنها على التحقيق مغالطة من مغالطات "العرف" التي تواضع عليها أبناء آدم وحواء على سنة الكذب والرياء، فهم جميعا سواسية في الخطايا والعيوب التي يخفونها ولا يعترفون بها، ومتى صدق عليهم قول السيد المسيح:» من لم يخطئ منكم فليرمهِ بحجر «. فلا حاجة بهم إلى الحجارة ولا إلى الرجم، ولا معنى لخجل قوم وشموخ آخرين، وما لم يكن الإنسان مجرما غارقا في الإجرام أو نذلاً مغرقا في الخسة، فعيوبه وخطاياه» قاسم مشترك أعظم «بينه وبين الآدميين جميعا من قبل الطوفان إلى نهاية الزمان.

وحسبي اعترافا في هذا الصدد أن أحدا من الناس لم يسلم من عيوبي وخطاياي؛ فهل في وسعهم جميعا أن يدعوا مساواتي في جميع فضائلي ومزاياي؟[13].

تلك هي معالجة العقاد لقضية الاعتراف، وهي كما نرى لا تبتعد عما كنا أوردناه من وجوب أن تتخذ فكرة الاعتراف لبوسا لها منبثقا من رحم الثقافة التي ينتمي إليها مادامت تتسع لضم أنواع الاعتراف جميعا أو تمثيل الذات كما تظهر للذات نفسها.

4. من الاعتراف إلى التحدث بنعمة الله: ترجمة النفس في التراث العربي

في سبعينات القرن الماضي قدم أحد الباحثين العرب دراسة نشرت على صفحات مجلة الكاتب المصري، عقد فيها مقارنة بين اعترافات القديس اوغسطين، وكتاب المنقذ من الضلال للإمام أبي حامد الغزالي، وخلصت المقارنة إلى أن أساس فن السيرة الذاتية هو عقيدة الاعتراف المسيحية، ولذلك لم يظهر في ثقافة العرب المسلمين هذا الفن لأنهم لم يعرفوا ثقافة الاعتراف كتكفير عن الخطايا بمجرد البوح بها[14]، وصارت هذه الفكرة حكما ثابتا يتم تداوله بين الأدبيات التي وضعت تعريفا وتقديما لهذا الفن في الساحة الأدبية العربية.

غير أنه ومن الطريف أن يضطلع فريق من الباحثين الأمريكيين مؤخرا بدحض هذه الفكرة عبر كتاب موسع تم تأليفه بعنوان " ترجمة النفس: السيرة الذاتية في الأدب العربي"[15]، ومن المؤسف حقا أن تجد من يدافع عن الهوية الأدبية العربية من الغربيين أنفسهم، بل ويكون عملهم قائما أساسا على دحض فكرة

غربية المنشأ للسيرة الذاتية، حيث تم عقد فصل كامل لذلك وضع له عنوان: مغالطة الأصول الغربية[16]، وواضح من العنوان مقصد الباحثين الأمريكان، أن ادعاء الغربيين بتملك أصول فن السيرة ليس إلا نوعا من التعامل الاستشراقي لا العلمي المعرفي.

كان منطلق الكتاب عبارات دبجها الامام السيوطي في ترجمته لنفسه، حدد فيها المقصد الأساس من ترجمة العلماء لأنفسهم، بأنه داخل تحت مسمى التحدث بنعمة الله، وذلك تحقيقا لقوله تعالى" وأما بنعمة ربك فحدث" ، ولعل هذا التحديد من الامام الغزالي يكشف دون مواربة أن الكتابة عن النفس عنده وعند غيره من العلماء الذين بسط أسماءهم في نص سنثبته لاحقا، ناشئة عن مقتضيات دينية لكنها مختلفة عن مقتضيات عقيدة الاعتراف في المسيحية، بل إنها لا تتقابل معها أصلا، بحكم أن مفهوم في التوبة في الإسلام قائم أساسا على الكتمان لا البوح والاعتراف، الى الغير من البشر، فمسألة الاعتراف بالذنب هي مما ينتدب اليه المسلم لكن في علاقته بربه لا بغيره، وأمام هذا الاختلاف والتعارض بين المفهومين، كانت نشأة السير والتراجم الذاتية في ثقافة العرب المسلمين تجد لنفسها مستندا فكريا ودينيا آخر هو التحدث بنعمة الله.

كان السيوطي من علماء العصور المتأخرة في الإسلام، وهذا يعني أنه لم يكن سباقا الى ما فعل، بل يثبت في ترجمته أنه يقوم بها اتباعا لكثير من العلماء ممن سبقوه ، يقول في ذلك: "مازالت العلماء قديما وحديثا يكتبون لأنفسهم تراجم، ولهم في ذلك مقاصد حميدة، منها التحدث بنعمة الله شكرا، ومنها التعريف بأحوالهم ليقتدى بهم فيها، ويستفيدها من لا يعرفها، ويعتمد عليها من أراد ذكرهم في تاريخ أو طبقات، وممن فعل ذلك: الامام عبد الغافر الفارسي، أحد حفاظ الحديث، والعماد الكاتب الاصفهاني، ترجم نفسه في تأليف مستقل سماه البرق الشامي، والفقيه عمارة اليمني ترجم نفسه في تأليف مستقل...."[17] وبعد أن يعدد مجموعة ممن سبقوه إلى ترجمة أنفسهم من العلماء والأدباء والكتاب، يصرح قائلا: " وقد اهتديت بهم في ذلك، فوضعت هذا الكتاب، تحدثا بنعمة الله وشكرا، لا رياء ولا سمعة ولا فخرا، والله المستعان وعليه التكلان"[18]

يمكننا الخروج من هذا النص الذ أثبتناه بطوله، بمجموعة من الملاحظات التي يصح أن تتنزل في هيئة قواعد الكتابة الترجمية، فمن حيث الوجود والتاريخ لم يكن السيوطي مستحدثا لهذا النوع من الكتابة، بل هو محاك متبع، وهذا يدل دلالة واضحة على أن هذا السلوك الادبي صار تقليدا متوارثا نابعا من صلب الثقافة نفسها، وما يؤكد ذلك أيضا أن أغلب التراجم التي ذكرها السيوطي لم تكن أحاديث عابرة من صفحة أو صفحتين بل كتبا وتآليف مستقلة أفردها المترجمون لأنفسهم وخصصوها لهذا الموضوع دون غيره، والملاحظة الأخيرة هي المقصد أو الهدف من وراء ظهور هذا الفن وتواتره، وهو وجوب التحدث بنعمة الله، ويدخل في هذا اظهار السبيل الذي اتبعه العالم للوصول الى ما صار عليه، وهو ما يكون دليلا للسالكين

بعده، وبالإضافة الى ذلك تمة مقصد علمي منهجي، وهو تيسير جمع التراجم على المؤلفين في كتب التراجم والطبقات.

يرصد كتاب" ترجمة النفس" حوالي 150 سيرة أو ترجمة كتبها أصحابها، ولم تك هذي الترجمات حكرا على الفقهاء وعلماء الدين، بل شملت مختلف رجال الأدب والفكر والشعر، مما يجعل منها فنا متوارثا متواترا مؤطرا بضوابط الانتماء الثقافي والديني، وعلينا هنا أن ننظر إليها كفن يضاهي في قيمته المحلية فن السيرة والاعتراف في ثقافته هو الآخر، أما أن نحتكم إلى مقياس السيرة الذاتية مثلما استقر عند الغربيين ونقاضي به هذه التراجم والسير فذلك نوع من المصادرة على المطلوب بلغة المناطقة.

5. ترجمات النفس عند العرب: الخصائص والأساليب

تنوعت الكتابات التي وضعت كترجمات للنفس ولو نظرنا اليها نظرة المتفحص لوجدنا أن تطور هذا الفن تآدى في ما بعد إلى ابتعاده عن موضوعة التحدث بنعمة الله، وتشعب الكتاب في استعراض خصيصات حياتهم وذواتهم بشكل يتقارب مع ما يريده الغربيون من فن السيرة الذاتية، ورغم أن ذلك الجدل القائم بين ذات داخلية وأخرى خارجية في الانسان لم يكن في الحقيقة إلا أحد مفرزات الحداثة، في العصر الحديث، إلا أن الغربيين جعلو منه معيارا مصاحبا للكتابات السيرية بشكل يجعل القارئ يعتقد أن تقسيم النفس الإنسانية الى داخل وخارج مسألة معرفية مقضي بصحتها، رغم أنها ليست إلا تصورا منبثقا عن منظورات فلسفة التحليل النفسي كما أقرها سيغموند فرويد[19]، فأولوية الغريزة الجنسية وتقسيم النفس الانسان الى وعي ولا وعي ليس من القضايا المتفق عليها في كل زمان ومكان، ومع ذلك فإن الجوهر الغربي للسيرة الذاتية، يقوم بشكل صريح على هذه المفرزات الفرويدية الحديثة، ثم يمضي ليحاكم بها المنجزات السيرية قديما وحديثا، وما قد يؤكد هذا الحكم أن السيرة الذاتية الأولى بهذا المفهوم تعزى الى جان جاك روسو ، وقد اجتهد كثير من النقاد الغربيين في استخراج خصائصها الفنية التي بدت منتظمة مع ثنائية الداخل والخارج والتركيز على الحياة الجنسية وأبعادها السلوكية والنفسية، بشكل قد يجعل من الصعب العثور على سيرة ذاتية أخرى بنفس المواصفات حتى عند الغربيين أنفسهم، ولذلك يبدو هذا المعيار المعتمد في تجنيس وتصنيف الكتابات السيرية غير صالح تماما معرفيا.

وبافتراض أن هذا المعيار هو الفيصل في عملية التجنيس، يذكر الباحثون أن ابن بلقين[20] خلف سيرة ذاتية تقترب بشكل كبير من هذا الصراع الذاتي، وتعكس بجلاء أن فن ترجمات النفس عند العرب ورغم أنه لم يكن يقوم ثقافيا ولا فكريا على ثنائية النفس الإنسانية، إلا أن تحديد موقف الذات من نفسها ومن وقائع التاريخ ورصد انطباعاتها وتحولاتها وصراعاتها من ذاتها داخليا كان متوفرا في هذه السيرة، يقول

دويت راينولدز محرر كتاب ترجمة النفس: إذا افترضنا جدلا أم مفاهيم مثل الخاص والشخصي، والذات الداخلية هي مفاهيم لا تتغير وغير تاريخية، وأن ما يبدو لنا شخصيا (في مقابل العام) هو في الواقع كذلك، فلابد أن يحكم إذن بالتأكيد على عدد من النصوص العربية في هذا المسح بأنها سير ذاتية حقيقية، حتى في ضوء تلك المعايير الاستباقية، فهذه النصوص تمتلك كثيرا من المعايير التي أرادها الباحثون الغربيون المحدثون مثل التصوير المباشر، لأفكار المؤلف، والاستجابات العاطفية، ووعي التطور النفسي والنضج من الطفولة إلى البلوغ إلى الشيخوخة، ويتمثل أحد هذه النصوص في السيرة الذاتية لا بن بلقين (ت1904م-487 هـ)[21].

1.5. خصوصية الذات في السير العربية: ابن بلقين نموذجا

تعتبر مذكرات بن بلقين[22] شاهدا تاريخيا على تاريخ غرناطة وبالتالي فهي مندرجة ضمن الكتابة التاريخية بشكل عام، لكنها مع ذلك تضمنت قسما كان بمثابة السيرة الذاتية للكاتب، عرض فيه ابن بلقين مواقفه الخاصة مما جرى في حياته، وخاصة عندما يقارن مجريات حياته كما وقعت بتنبؤات قراءة الطالع التي أخفيت عليه في صغره ثم عرفها، وقصته مع تأخر ذريته وكيف استقبل انتقال حياته من الملك والسلطة الى العزل والمنفى[23]، يقول في ذلك: طالعت من مولدي أشياء ميزتها من طباعي وأخلاقي، على أن واضعيه ألفوه وأنا في حال الطفولية، لم يوصل إذ ذاك إلى معرفة شيء من أحوالي، وكتمه عني الوزير سماجة مدة، حتى وقع السفر إلي يدي على غير ظن، فشق ذلك عليه، خوفا علي مما كان منصوصا فيه من السعادة، فطالعت منه عجائب وغرائب"[24] .

فهذا النص الذي أوردناه على لسان ابن بلقين يبدو استرجاعا منه لذكرياته مع السفر الذي تضمن طالعه وكان مخفيا عنه، لكنه بعد اطلاعه عليه، صار يقارن ما نص عليه طالعه من السعادة التي ستكلل حياته، وبين حياته كما جرت بالفعل، وقد وجد أنها كانت على النقيض مما ورد في طالعه.

وما قد يفيدنا ونحن في معرض استظهار خصيصات نظر إليها أن تتساوق مع جوهر مع جواهر السيرة الذاتية هو التحدث عن الذات وتحولاتها وتقلباتها ومحاولة فهم ميولها وسلوكياتها وتغيراتها عبر مراحل الحياة، كل هذا نجد طرفا منه في ثنايا حديث ابن بلقين على نفسه، دون أن يتعارض ذلك مع معطى "التحدث بنعمة الله" التي تصادفنا عندما مجده يتحدث عن ولعه بالأطفال ويصف بهجته وقد رزق بهم بعد عمر، يقول في ذلك: وكان من نعمة الله علي أن رزقني بكر أولادي ابنة، لم يزل قبيلنا كله يتبرك بها ويكره أن يكون ابنه ذكرا....فتعداد نعم الله شكر لها، والاعلان على وجه الشكر والتقوي، لا على الفخر والخيلاء...[25].

إن المميز في سيرة بن بلكين أنها استطاعت أن تحتفظ بجوهر الكتابة العربية في ترجمات النفس المقترنة كما أسلفنا بوجوب شكر النعم، لكنها مع ذلك حملت شذرات نفسية وتأملية وذاتية اقتربت بها من معايير الكتابة السيرية الغربية دون أن تتطابق معها لتباين الهدف والثقافة والانتماء، ورغم أن الكاتب الف مذكراته هذه في وضع لم يعد له ما يخسره فيه، إلا أن ذلك لم يكن مطية لأن تخترق كتابته مواضعات التأدب مع القارئ في شأن كشف التجارب الشهوانية والغرائزية أو الخطايا، وذلك لأن حديثا كذلك لن يكون لذاته في سفر حمل خيبات سياسية ووقائع تاريخية تابعها صاحبها متأملا متتبعا محاولا الاعتراف بمواقفه منها عبر أسطر هذا الكتاب.

ولو لا أن المقام يضيق باستعراض دقائق هذا المؤلف واقترابها من تحقيق منجز سيري أصيل لأثبتنا كثيرا مما يشهد له بذلك، رغم أنه لم يكن وحيدا في هذا المضمار، فقد سبق لنا الإشارة إلى أن هناك ما يربو عن 150 سيرة ذاتية وترجمة يمكن من خلال النظر فيها مجتمعة الى استخلاص جملة القواعد التي انبنى عليها هذا الفن الأصيل في ثقافة العرب المسلمين، دون شعور بعقدة النقص التي صاحبت الماعي التأصيلية للإبداعات الغربية الوافدة.

6.خـــــــاتمة:

اتضح لنا من خلال هذا العرض، أن الأشكال الأدبية وثيقة الصلة بالبيئات الثقافية التي نبتت فيها، ولذلك يغدو اقتناصها دون تلك الصلات ببيئاتها نوعا من اغتراس غرس دون جذور، وقبل ذلك، ما الحاجة التي تدعونا دوما الى تبيئة الأفكار والمفاهيم؟، اذا كانت هذه الحاجة مجرد اجترار ومسايرة ومتابعة للغرب في كل طارئ، فهذا ليس بمسوغ معرفي تماما، اذ كثيرا ما أثبتت المنتجات الفكرية الجديدة عدم سلامتها حتى في بيئتها الأصل، أما إن كانت الحاجة الحضارية الراهنة هي المعيار في اختيار ما نختاره من الغربيين أو من غيرهم وحتى من تراث أسلافنا، فلعلنا بذلك نكون قد خطونا الخطوة الأولى بنجاح نحو رأب ما تصدع من الثقافة الراهنة.

فقد لاحظنا أن تحكيم المعيار الغربي أفضى بالدارسين إلى شعور بعقدة النق اتجاه غيرهم لا شيء إلا لأنهم لم يجدوا ما يقابلون به فنا وافدا عليهم، وعدم الوجود هذا متعلق بالمقاييس التي صدرت مع هذا الفن، لكن تغيير أدوات النظر والتحري مكنت باحثين آخرين من وضع دراسات موضوعية استطاعت التخلص من سطوة النظر المنهجي الاستشرافي وحررت بذلك نتائجها التي بدت نتائج يمكن بناء عليها التأسيس لهذا الفن في صبغته الحضارية المحلية، دون أن يخل ذلك بقيمة المنجز في حد ذاته.

7. الهوامش:

[1] https://www.larousse.fr/encyclopedie/divers/autobiographie/24227

[2] فيليب لوجون، السيرة الذاتية:الميثاق والتاريخ الأدبي، تر: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1994، ص: 22.

[3] نفسه، ص: 23.

[4] ينظر: التعليم المسيحي للشبيبة الكاثوليكية - بالعربية، مجموعة من الأساقفة بموافقة البابا بندكت السادس عشر، مكتب الشبيبة البطريركي، بكركي 2012، ص.132-136.

[5] المرجع نفسه، ص: 136.

[6] يمكن الاطلاع عليها: اعترافات القديس اوغسطينوس، نقله من اللاتينية الى العربية: إبراهيم الغربي، مراجعة محمد الشاوش، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، 2012.

[7] يعتبر كثير من مؤرخي الأدب في الثقافة الغربية أن اعترافات جان جاك روسو هي أول سيرة ذاتية كاملة بالمواصفات النهائية، لكن الملامح العامة لها ككتابة عن الذات موجودة في كل الثقافات تقريبا، وان كان شيء يميز كتابة روسو التي اعتبرت عندهم معيارا فهو النزوع الى المكاشفات الفضائحية في ماتعلق بسرد المغامرات الجنسية.

[8] شوقي ضيف، الترجمة الشخصية، دار المعارف، القاهرة 1970، ص: 05.

[9] احسان عباس، فن السيرة، دار الشروق الأردن 1996، ص: 111-112.

[10] حول علاقة المسيحية بالاعتراف هناك الكثير من الدراسات وعن علاقة الك بغياب ادب الاعتراف عن الادب العربي يمكن أن يعود القارئ إلى: عامر عبد زيد الوائلي، أدب الاعتراف ومسوغات الغياب، مجلة الجديد، مجلة الكترونية، على الرابط:https://bit.ly/3rWlqB6

[11] احمد أمين، فيض الخاطر، جـ09، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2012ص: 199.

[12] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[13] عباس محمود العقاد، أنا، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1982، ص: 244-245.

[14] نقلا عن: مجموعة مؤلفين، ترجمة النفس، السيرة الذاتية في الأدب العربي، تحرير دويل راينولدز، ترجمة سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي 2009، ص: 07.

[15] المرجع نفسه.

[16] المرجع نفسه، ص: 37-41.

[17] السيوطي، التحدث بنعمة الله، تحقيق ماري سارتين، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة 1972، ص: 03-04.

[18] المرجع نفسه، ص: 04.

[19]ينظر: مجموعة مؤلفين، ترجمة النفس، السيرة الذاتية في الأدب العربي، تحرير دويل راينولدز، ترجمة سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي 2009، 112-113.

[20] عبد الله بن بلكين - أو بلقين - بن باديس بن حبوس الصنهاجي: آخر ملوك غرناطة، من الدولة الصنهاجية، في أيام ملوك الطوائف بالأندلس. وليها بعد وفاة جده باديس بن حبوس (سنة 465 ﻫ) واستمر فيها إلى أن هاجمه يوسف بن تاشفين وتغلب عليه (سنه 483 ﻫ) وأخذه معه في عودته إلى مراكش، وضم إليه أخا له اسمه تميم، وأنزلهما بالسوس الأقصى، وأقطع لهما إلى أن هلكا. قال ابن خلدون: فاضمحل ملك " بلكانة " من صنهاجة ومن إفريقية والأندلس أجمع وهو صاحب كتاب " التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة " رآه النباهي مؤلف تاريخ قضاة الأندلس، ونقل عنه ونشر باسم " مذكرات الأمير عبد الله.

ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، جـ4، دار العلم للملايين، ص: 75.

[21] ترجمة النفس، ص: 112.

[22] ينظر: عبد الله بن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة،483-469 ، المسماة بكتاب " التبيان"، تحقيق :لڤي بروڤنسال, 1894-1956، 1955

[23] من المعروف تاريخيا أن بن بلقين عزل من منصبه وأخذه معه يوسف بن تاشفين الى مراكش، ينظر: بن بلقين، التبيان (مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين)، تحيق لقي بروفنسال، ص: 210.

[24] بن بلقين، التبيان (مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين)، تحيق لقي بروفنسال، ص: 176.

[25] المصدر نفسه، ص: 199.

8. قائمة المصادر والمراجع:

1. احسان عباس، فن السيرة، دار الشروق الأردن 1996.
2. احمد أمين، فيض الخاطر، ج09، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2012.
3. اوغسطينوس، اعترافات القديس، نقله من اللاتينية الى العربية: إبراهيم الغربي، مراجعة محمد الشاوش، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، 2012.
4. خير الدين الزركلي، الأعلام، ج4، دار العلم للملايين بيروت.
5. السيوطي، التحدث بنعمة الله، تحقيق ماري سارتين، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة 1972.
6. شوقي ضيف، الترجمة الشخصية، دار المعارف، القاهرة 1970.
7. عامر عبد زيد الوائلي، أدب الاعتراف ومسوغات الغياب، مجلة الجديد، مجلة الكترونية، على الرابط: https://bit.ly/3rWlqB6
8. عباس محمود العقاد، أنا، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1982.
9. عبد الله بن بلقين، مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة،483-469 ، المسماة بكتاب " التبيان"، تحقيق :لقي بروفنسال,, 1894-1956، 1955.
10. فيليب لوجون، السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ الأدبي، تر: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1994.
11. مجموعة من الأساقفة بموافقة البابا بندكت السادس عشر، التعليم المسيحي للشبيبة الكاثوليكية بالعربية، مكتب الشبيبة البطريركي، بكركي 2012.
12. مجموعة مؤلفين، ترجمة النفس، السيرة الذاتية في الأدب العربي، تحرير دويل راينولدز، ترجمة سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي 2009.
13. https://www.larousse.fr/encyclopedie/divers/autobiographie/24227